مكتبة البحث
قسم الدوريات

حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

العدد الثامن
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

غير مصرح بإعارته من المكتبة

منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر

أ. د. محمد عبد الستار نصار
الأستاذ بقسم العقيدة والأديان

مقدمـــة

يكشف العلم التجريبي كل يوم عن كثير من النظريات والقوانين، ويخطو خطوات هائلة نحو التقدم، ويقرر كثير من الباحثين في هذا العلم أن المنجزات التي حققها في العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن، يمكن أن تتجاوز في كمها وكيفها كل منجزات العلم في سابق الزمان.

ومما لا شك فيه أن اطراد العلم وتطوره يؤثر على الدين إيجاباً وسلباً في نفس الوقت، فأما من الناحية الإيجابية فلأن الحقيقة العلمية في حد ذاتها يمكن أن تخدم الدين وتدعم أصوله وقضاياه، متى صدرت من عالم محايد أو على الأقل لم ينظر إليها الباحثون بعين عوراء، ترى نصف الحقيقة، وتغمض العين عن نصفها الآخر، أعني: أن يقصر النظر على الحقيقة العلمية دون ما وراءها من حقائق لازمة لها، هي المدخل الحقيقي لتدعيم الدين وتقويته. وأما من الناحية السلبية، فلأن بعض قصار النظر، يتصورون أن العلم باطراده وتطوره، قد حل كل أسرار الكون، ولم يصبح للدين مكان بعد ذلك، ويخيل إليهم أن كثيراً من القضايا التي كانت تعزى إلى الدين من حيث تعليلها وتفسيرها أصبح العلم كفيلاً بها، يعللها ويفسرها، من ثم يمكن أن يقال، كما

عبر عن ذلك أحد زعماء الاتجاه الالحادي الحديث وأعني به «جوليان هكسلي». لقد أصبح العلم انفجاراً معرفياً في وجه الدين».

ترى!!! في هذا الجو المصطنع بالعلم والتقدم العلمي، والملتحف بالمنهجية، والرافض لكل تفسير غير علمي لأية حقيقة، والذي رتب على ذلك رفضه لكثير من حقائق الدين وقضاياه وبخاصة دائرة عالم الغيب، وهي المجال الواسع والحقيقي لأصول الدين وأسسه، هل يمكن للباحثين في علم العقيدة أن يقفوا عند صور الاستدلال القديمة التي اتخذها الأسلاف منهجاً في تثبيت العقائد أو الرد على المخالفين لها ؟

أتصور أن الأمر لا يمكن أن يقف بهم عند الصور القديمة، وهي مسألة تحتمها الضرورة الشرعية، ألا ترى أن قوله: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)[1] . يؤيد ما نذهب إليه؟ فالحكمة تعني: وضع الشيء في نصابه، وهذا بالضرورة يقتضي معرفة الملابسات والأحوال والظروف المحيطة بمن يأخذ على عاتقه مهمة الدعوة إلى الله. ولما كانت إنجازات العلم التجريبي على هذه الشاكلة التي صورناها قبلاً، فإن على علماء العقيدة أن يطوروا منهجهم، على الصورة التي يفهمها منطق العصر. ولو أنهم ظلوا متشبثين بطرقهم القديمة حين التصدي لأصحاب الاتجاهات الملحدة، فلن يفيد ذلك شيئاً، فلغة اليوم في الحوار بين الأديان أو بينها وبين التيار الالحادي، تخالف إلى حد بعيد لغة الأمس. ولاشك في أن هذا الأمر سيكلف الباحثين في ميدان العقيدة الشيء الكثير، حيث يلزمهم المنهج الجديد، أن يقفوا على كل منجزات العلم، ويوظفوها بذكاء في خدمة العقيدة، هذه هي الفكرة الأساسية التي يدور حولها البحث.

وحتى نبرز فكرتنا فإننا سندرس القضايا الآتية :

١ – صور الاستدلال القديمة التي انتهجها المفكرون الإسلاميون حين تصدوا لأمور العقيدة.

٢ – تقويم هذا المنهج في إطاره التاريخي.

٣ – المنهج المقترح والدواعي إلى ظهوره.

---

١ – سورة النحل : آية ١٢٥.

٤ – تطبيقات هذا المنهج في الحياة الفكرية المعاصرة.

٥ – تقويم هذه التجربة المنهجية في ضوء حقائق الإسلام.

صور الاستدلال عند المتقدمين : (بين يدي الموضوع)

تجدر الإشارة – قبل دراسة هذا الموضوع – أن نبين باختصار طبيعة المنهاج الذي جاء في القرآن الكريم في مجال تثبيت العقيدة لدى المؤمنين أو الدفاع عنها ضد شبهات الخصوم، حتى يتبين لنا إلى أي مدى كان القدماء مع منهج القرآن أو كانوا متجاوزين له.

إن القرآن بطبيعته ليس كتاباً عادياً يعالج القضايا التي يتعرض لها، كما تعالج قضايا العلم، ولكنه من قبل ومن بعد كتاب هداية، وفي مواجهته للخصوم، وفي تقريره لقضايا أصول الدين استعمل منهجاً فريداً، لا يعتمد على الجانب العقلي المجرد فحسب، ولا يركن إلى جانب التجارب المشاهدة فقط، ولا يخاطب في الإنسان ملكة بعينها، ولكنه كان منهاجاً شاملاً، نستطيع أن نقول عنه باختصار إنه منهاج مستوعب لكل ملكات المخاطبين، ومراعى فيه مقام الخطاب. حتى يكون في مستوى من يتعامل معه فهماً وإدراكاً، ولعل السر وراء ذلك أن يقيم الله به الحجة على المعاندين، ويكون سنداً وردءاً للمتبعين.

نراه مثلاً في مقام الاستدلال على وجود الله، لا يسوق الدليل في شكل مقدمات منطقية جافة، بل ينتزع من العالم الواقعي المشاهد في الآفاق والأنفس مقدمات أدلته ويدفع الإنسان إلى التأمل والنظر فيمن حوله وما حوله من مجالي القدرة، مثل قوله تعالى: (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون، وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)[٢] .

---

٢ – سورة الرعد : الآيات ٢، ٣، ٤.

والآيات تشير إلى :

١ – واقع محس ذي ظواهر متعددة ليس هناك سبيل إلى إنكاره أو اعتباره وهماً؛ لأنه يخاطب ملكات الإنسان كلها، وإلا أنكر المنكر وجود نفسه، ويصبح انكاره ساقطاً حينئذ.

٢ – في وجود هذا الواقع مع تعدد ظواهره، تنبيه من ملكات الإنسان الحسية إلى ملكاته المعنوية للتأمل والتفكير فيما وراء هذا الواقع، ما سبب وجوده؟ وفي اثارة مثل هذه الأسئلة لا يملك العقل الصريح سوى الاذعان لضرورة البداهة، وهي أنه من المستحيل أن يخلق هذا الكون من العدم لأن العدم لا يخلق وجوداً، كما أنه من المستحيل أن يكون قد وجد على سبيل المصادفة، لأنه فرصها نادرة جداً، ولأنها من جانب آخر ليس لها قصد أو غاية. لم يبق أمام العقل إلا الاذعان والاعتراف بأن هذا الكون المنظم على هذه الصورة المنسقة من فعل قوة كبرى هي الله رب العالمين.

وفي آيات أخرى تؤكد هذا المعنى بطريق الخلف، يقول الله تعالى مخاطباً ذوى العقول : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون. أم لهم سلَّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين)[٣] فالآيات تفترض وجود الإنسان من غير خالق، وتحمل في ثناياها رفض هذا الفرض؛ لأن الوجود من عدم من غير علة مرفوض عقلاً، وتفترض خلق الانسان لنفسه، وتأبى هذا الفرض أيضاً، لأنه لا يستطيع التأثير في غيره على سبيل الاستقلال فكيف يخلق نفسه، وإذا كان الأمر كذلك فقد تحقق عجزه عن خلق السماوات والأرض، وإذا توهم الإنسان أن بيده خزائن القدرة الآلهية فليأت بما يدل على ذلك وليس في طاقته أن يحصل على دليل يقره على ما يتوهم، فلم يبق إلا الإذعان لمنطق القدرة الإلهية الدالة على وجود خالق، وهو الله رب العالمين.

والآيات – كما نرى – تحلل كل الافتراضات المحتملة في القضية، وترفضها جميعاً ليتأكد لكل ذي لب أن وجود العالم على هذا النسق دليل واضح على وجود خالقه. وهو

---

٣ – سورة الطور : الآيات ٣٥ – ٣٨.

دليل يشتق مادته من الواقع المحس، الذي يغذى ملكات الإنسان كلها الظاهرة منها والباطنة.

هذه إشارة موجزة ومركزة إلى أدلة إثبات وجود الله، وفي تقديري أن طريقة القرآن الكريم في لفت ملكات الإنسان إلى آثار الله في كونه وفي نفوس البشر، لتنسج منها مادة الاستدلال، لا يهدف من وراء ذلك إلى إحداث شيء ليس مركوزاً في أصل الفطرة، ذلك لأن الذي أومن به ويؤمن به كل ذي عقل أن الإنسان مفطور على الإيمان بالله، بل إن الكون كله كذلك، وفي آية الميثاق دليل واضح على ما أقول، إذ يقول الله فيها (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)[٤] وفي قوله : (ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال)[٥] . وقوله : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم أنه كان حليماً غفورا)[٦] دليل على إيمان الكون بالله رب العالمين، ولا ينكر هذا إلا أصحاب النفوس المريضة، الذين لا يتجاوزون النظرة المادية الضيقة إلى الكون والحياة إلى ما وراءها من عوالم الإيمان والفكر الصحيح.

وفي مقام الوحدانية يسوق القرآن الكريم هذه الآيات : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[٧] وقوله : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض)[٨] وقوله : (أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون. أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون. أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون. أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما

---

٤ – سورة الأعراف : آية ١٧٢.

٥ – سورة الرعد : آية ١٥.

٦ – سورة الاسراء : آية ٤٤.

٧ – سورة الأنبياء : آية ١٢.

٨ – سورة المؤمنون : آية ٩١.

يشركون. أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)[٩] .

ومحتوى هذه الآيات دليل واضح على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى، فالآية الأولى تقرر الوحدانية بناء على واقع محس، هو النظام الكوني الدقيق، وترتب الفساد على التعدد، ولما كان الواقع يشهد بأنه لا فساد، إذن فلا تعدد، والآية الثانية تبين نتيجة التعدد المفترض، وهو التعالي والتنازع بين المتعددين، وهو تحديد نفوذ كل إله عند الاتفاق. وهذا يعني تقييد قدرته وعجزه عن أن يكون له أثر لدى المتنازع معه، أو عدم وجود الأثر عند الاختلاف. ولما كان الأثر بادياً لكل ذي بصر، في إطار من الانسجام والتنسيق، فدل ذلك كله على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى، لأن يده الصناع ذات أثر واحد في طبيعته، ولا يمكن عقلاً اجتماع مؤثرين على أثر واحد إلا ولابد أن يكون لكل منهما أثره المختلف عن الآخر.

وفي آيات سورة «النمل» حديث عن مظهر وحدة الإله الحق، متمثل في خلق السماوات والأرض وإنزال الماء، وإنبات الحدائق ذات البهجة، مع بيان أن ذلك كله فوق طاقة أي مخلوق، وكذلك جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً الخ، ثم تنتهي الآيات بهذا الموقف الصارم: إذا دعيتم أن هناك إلهاً مع الله سبحانه فأين برهانكم على دعواكم؟ وإذا كان القوم يعوزهم البرهان الصحيح، فلم يبق إلا الإيقان بأن الله واحد لا شريك له.

ونقرأ في التصور الصحيح لعلاقة الصفات بالذات قوله تعالى: (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم[١٠] فيستشعر المؤمن العاقل، وكل ذي عقل عظمة الإله الحق الموصوف بكل صفات الكمال والجلال، وينعكس هذا الإيمان العميق على سلوكه، فيكون إيجابياً في كل أقواله وأفعاله وتصرفاته.

---

٩ – سورة النمل : الآيات ٦٠ – ٦٤.

١٠ – سورة الحشر : الآيات ٢٢ – ٢٤.

تلك آيات نستطيع من خلالها استخلاص منهج القرآن في قضايا العقيدة. وهو منهج يتلاءم مع الفطرة النقية الصحيحة، ويقوم - في نفس الوقت - اعوجاج أصحاب الفطرة التي لوثتها النزعات الشيطانية، وأرباب الأهواء والمطامع المادية. وفي خطابهم المباشر يقيم القرآن الكريم الأدلة الواضحة على تهافت ما هم عليه، ويجعل التحاكم إلى البرهان هو الفيصل في محل النزاع، على غرار ما جاء في سورة «المؤمنون» في قوله لمن يتصور شريكاً مع الله (قل هاتو برهانكم إن كنتم صادقين).

ثم نطالع في القرآن الكريم مشهداً ينعي على أولئك الذين ينظرون إلى هذا الكون المليء بالآيات الباهرات، نظرة عابرة، لا توقفهم أمام قوة الخالق ودقته وإحكامه وعظمته، كقوله تعالى: (وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون)[١١] .

إذن يريد القرآن أن يحدث بين الإنسان والكون، تلك العلاقة الوطيدة الأصيلة، ليكون منه أدلة وشواهد على علته ومبدعه، في إطار المهمة العظمى التي وجه بها الحق سبحانه وتعالى عناصر هذا الكون لتكون مسخرة للإنسان، على اعتبار أنه يمثل مهمة الخلافة عن الله رب العالمين.

هذه باختصار قسمات المنهاج القرآن. ويوم وعاها المسلمون بحق، استطاعوا منازلة خصومهم، والانتصار عليهم، وفي نفس الوقت، احتفظوا بالروح العامة لطبيعة هذا المنهاج. لقد كانت العقيدة ملء وجدانهم طاقات خلاقة مبدعة، ويوم أن تحولوا بها إلى مجادلات تقوم على التولدات والإلزامات، دون أن تغذي القلب أو يطمئن إليها العقل، هنالك رأينا منهاجاً يتجاوز الروح الحقيقية التي جاء بها القرآن الكريم، وكان هذا شأن كثير من المفكرين القدماء كلاميين وفلاسفة إسلاميين.

نماذج : أدلة وجود الله

أجهد المتكلمون القدامى أنفسهم في قضية إثبات الصانع، وقد يكون الدافع وراء هذا الجهد، تلك الموجات الإلحادية التي أفرزتها عملية التزاوج الفكري بين الإسلام وغيره من الأديان والمذاهب الأخرى، غير أن الذي كان ينبغي على هؤلاء إدراكه، هو

---

١١ - سورة يوسف : آية ١٠٥.

ضرورة الالتزام بطبيعة المنهاج القرآني، الذي يحافظ على صفاء العقيدة، ولا يتحول بها إلى جدل عقيم، كما أنه يبني قواعد الاستدلال من العالم الواقعي المعاين. لقد تحول هؤلاء إلى طريقة في الاستدلال، تقوم على مقدمات تقبل الجدل والاحتمال، وبالضرورة تكون النتيجة المترتبة عليها غير كافية لإيجاد نوع من اليقين لدى المخاطب بها. وقد قال بحق الإمام الغزالي إن الإيمان الذي يورثه علم الكلام، أضعف من إيمان العوام الذين يسلكون مسلك الفطرة السليمة، بل يرى بعض الباحثين قديماً وحديثاً أنها تثير من الشبه أكثر من دعوتها إلى الاقناع. ولقد كان الواقع الفكري يشكل ميداناً ثار فيه غبار الجدل العقيم بين أطراف النزاع. وكل فريق يدعي أنه هو وحده على الحق، وأن ما سواه على الباطل، ومحصول الأدلة التي أفرزتها تلك المواجهة الداخلية كان شيئاً هشاً يحسبه أصحابه شيئاً، ولم يكن في الواقع كذلك، حتى صح قول القائل :

حجج تهاتف كالزجاج تخالها حقا وكل كاسر مكسور

لقد اعتمد المتكلمون : أشاعرة ومعتزلة عدة أدلة على وجود الله منها :

١ - دليل الجوهر الفرد : أو الجزء الذي لا يتجزء، وقوام هذا الدليل أن الأشياء المادية تتقلب عليها أحوال تعرض لها، ثم تنتقل منها لتحل محلها أعراض أخرى، وهذه الأشياء المادية تقبل القسمة حتى تنتهي إلى جزء لا يقبلها، وهو ما يطلق عليه اسم «الجوهر الفرد» فإذا كانت الجواهر لا تنفك عن الأعراض، وكانت هذه الأعراض حادثة لطروء التغير عليها، فإن الأمر يعني أن تلك الجواهر حادثة كذلك، لأن ما لا يخلو عن الحادث يكون حادثاً، ولما كان العالم مكوناً من جواهر وأعراض حادثة، كان العالم حادثاً أيضاً، ومتى كان كذلك، فلابد له من محدث، وفي نظر المتكلمين أن محدث العالم، لا يمكن أن يكون حادثاً مثله، وإلالزم التسلسل أو الدور وهما باطلان[١٢] إذن الله سبحانه وتعالى هو محدث هذا العالم. ولا يكون الإحداث والخلق إلا من موجود سابق على ما أوجده وخلقه.

ويلاحظ أن هذا الدليل معتمد على مقدمات غير مسلمة، كما أن فكرة الجوهر الفرد ليست إسلامية بل اغريقية، تعود إلى المذهب الذري لدى «ديمقريطس» أما أن طريقتهم تعتمد على فكرة نظرية، وهي القول بوجود جزء لا يتجزأ فإن هذه الفكرة

١٢ - د. محمود قاسم، مقدمة الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ١٢، ط. القاهرة سنة ١٩٦٤.

لا يسلم بها كثير من المفكرين، والنظام – المفكر المعتزلي المعروف – انتهى إلى فكرة انقسام الجواهر الفردة أو قبولها للقسمة ولو كان ذلك في التصور الذهني، كما أن العلم الحديث لا يقر هذه الفكرة، بعد أن ثبت بالتجربة أن الذرة قابلة للانقسام.

لقد كان ابن رشد من المفكرين المسلمين الذين لاحظوا ما في طريقة المتكلمين هنا من تمحل؛ ذلك لأن طريقتهم لو فرضنا صحتها فما عدد من يمكنه الاستفادة منها؟ هل هم الخواص الذين يمكنهم أن يوجهوا إليها كثيراً من النقد، بناء على أن مقدمات الاستدلال غير مسلمة على اعتبار أن طروء التغير إذا لوحظ على بعض الأعراض، فلا يمكن تعميم الحكم ليشملها جميعاً، أو هم العوام الذين لا يدركون الحقائق إلا بالطريق السهل المباشر، غير هذه الطريقة المعتاصة على حد تعبير ابن رشد. فإذا انضم إلى صعوبتها في ذاتها، ما تقبله من مناقشة، فإن ذلك يعني أنها طريقة غير صحيحة.

إن البرهان المطلوب هنا في مقام الاستدلال على وجود الله، هو الذي يقضي على كل شبهة ممكنة، ويفرض نفسه على العقل فرضاً[١٣] وليس لنا أن نقارن هنا بين طريقة المتكلمين وبين منهاج القرآن في مقام الاستدلال على وجود الله كما أشرنا إلى ذلك آنفاً، إلا من قبيل تمايز الأشياء بمقابلاتها، فأين وجه الشبه بين طريقتين إحداهما تعتمد الوجود الواقعي المنظم كأثر لمؤثر حكيم، وثانيتهما تعتمد على مقدمات تقبل المناقشة والجدل؟

ولقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية ما في طرق المتكلمين والفلاسفة من بعد عن المنهاج الواضح السليم، الذي انتهجه القرآن الكريم، وقدم كثيراً من الملاحظات التي تؤخذ عليهم في طرق استدلالهم. ويظهر أنه أفاد من ابن رشد هنا، وإن كان قد توسع كثيراً في نقده.

٢ – دليل الممكن والواجب : وهذا الدليل ينسب إلى أبي المعالي الجويني بصفة خاصة من المتكلمين وإلى الفارابي وابن سينا من الفلاسفة الإسلاميين، ويعتمد لدى الفلاسفة على انقسام الوجود في التصور الذهني دون ملاحظة الواقع، إلى الواجب

---

١٣ – د. محمود قاسم، ابن رشد وفلسفته الدينية ص ١٠٤، ط. القاهرة سنة ١٩٦٦.

١٤ – د. قاسم، مقدمة الكشف عن مناهج الأدلة، ص ١٥.

والممكن، والانتهاء إلى أن الممكن مفتقر في وجوده إلى الواجب قطعاً للتسلسل أو الدور الباطلين. كما يعتمد لدى أبي المعالي على فكرة إمكان أن يكون العالم على غير ما هو عليه الآن، من حيث حركاته ووضعه وعلاقة عناصره بعضها ببعض، وعلى أي التصورين فإن الدليل ليس بالمسلم به بسهولة، كما أنه ليس سهلاً تقبله الفطرة السليمة دون عناء، وقد يكون الخطب سهلاً مع الفلاسفة الإسلاميين، ذلك لأن منطلقهم في الاستدلال نظري بحت، إذا سلم به فلن يكون إلا من الخواص، وأما مع الجويني فالخطب جلل والأمر جسيم، لأن القول بإمكان عالم على أوضاع غير أوضاعه الحالية، إذا كان يعني إطلاق المشيئة الإلهية فإنه في نفس الوقت يخدش وصف الحق سبحانه وتعالى بالحكمة التي تتنافى مع هذا التصور، وقد رأينا القرآن الكريم، يقرر أن حكمة الله بادية في كل عناصر الوجود، ولولا ذلك لأمكن تصور العبث عليه سبحانه وهو في حقه محال قطعاً، وصدق الله العظيم حيث يقول: (إنا كل شيء خلقناه بقدر)[١٥] وقوله : (وكل شيء عنده بمقدار)[١٦]، (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق)[١٧] .

إن طرق الاستدلال لدى كثير من المتكلمين قد تجاوزت الوضع المناسب حين تعاملت مع الذات الإلهية، وقد فهم كل فريق - تقريباً - كثيراً من قضايا الألوهية من منظار خاص؛ حتى بدت مسألة مثل مسألة «التنزيه» الإلهي ذات أوضاع متغايرة، حيث فهمها المعتزلة بمعنى غير الذي فهمه بها الأشاعرة والماتريدية والحشوية، والصوفية والفلاسفة، وكل هذه الأفهام قد تقرب أو تبعد من روح القرآن الكريم.

ولم نر من المتكلمين - فيما نعلم - إلا «الماتريدي» الذي أصاب وجهاً للحق في استدلاله على وجود الله، حين استخدم دليل السببية والعناية، وهو دليل مشتق من روح القرآن الكريم ويعتمد على مقدمات واقعية، تشكل برهاناً لا يملك العقل إلا الإذعان له. وأن كان في نفس الوقت قد صور بعض الأدلة التي تقبل الجدل والمناقشة. وحسبه أنه أجاد في ذلك إجادة تقربه جداً من طبيعة الاستدلال، كما جاء بها القرآن الكريم[١٨].

---

١٥ - سورة القمر : آية ٤٩.

١٦ - سورة الرعد : آية ٨.

١٧ - سورة المؤمنون : آية ١١٥.

١٨ - التوحيد، ص ١٥، ١٧، ١٨، ط. دار المشرق، بيروت سنة ١٩٧٠.

هذه هي باختصار بعض أدلة المتكلمين على وجود الله، لم يسلم منها إلا ديل السببية والعناية الذي قدمه «الماتريدي، وأما دليلا الجوهر الفرد والواجب والممكن فقد بان منهما أنهما غير برهانين لاعتمادهما على مقدمات قابلة للمناقشة.

الوحدانية : أقام جمهور المتكلمين من أشاعرة ومعتزلة دليل التمانع لإثبات الوحدانية للحق سبحانه، وعلى الرغم من أن هذا الدليل يرتكز أساساً على بعض الآيات القرآنية التي سبقت الاشارة إليها، مثل قوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقوله : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض..) إلا أن صورة دليلهم جاءت على شكل جدلي غير برهاني، حيث افترضوا التعدد ورتبوا عليه محالات، ليسلم لهم الدليل. ولكن عند التدقيق في اللوازم المستحيلة المرتبة على افتراض التعدد يبدو الخلل في تركيب الدليل. وبيان ذلك أنهم يتصورون أن يتم التعدد المفترض على صورتين :

إحداهما : أن يتم الخلاف بين الآلهة فتتعارض إرادتهم فلا يصدر عنهم شيء، لأنه لا أثر مع وجود تعارض بين المؤثرين. ولما كان العالم موجوداً فدل ذلك على أنه أثر لإله واحد.

ثانيتهما : أن يتم الاتفاق بينهم، ويترتب على ذلك محال لا يليق بالإله، وهو تحديد قدرة وإرادة وعلم كل إله، حيث لا يستطيع أن يؤثر بالإيجاد والتخصيص والإحاطة في غير الدائرة التي اختص بها. وفي هذا ما يتعارض مع طبيعة الصفات الثابتة للإله الحق، لأنها مطلقة وشاملة متعلقاتها.

إن النظرة العجلى قد تسلم لهم بصحة هذا المسلك في الاستدلال، ولكن عند التدقيق نلاحظ أن الصورة الثانية، لا تستلزم النتيجة التي توصلوا إليها، إذ من الممكن أن يقال: إن اختصاص كل إله ببعض ظواهر الخلق قد يقع بينهم على سبيل التراضي فلا يكون كل واحد منهم مقهوراً بالنسبة للآخر، وهذه شبهة تجعل الدليل هشاً، بل قد تطيح به كله، ولقد تنبه بعض المتكلمين إلى ضعف هذا الدليل، فقرر أن دليل التمانع غير برهاني، بل جدلي. وأن الآيات التي اعتمد عليها إقناعية فقط[١٩] .

وفي تقديري أن ضعف الدليل إنما جاء من طريقة صياغته، لا من الأساس الذي بنى عليه، وهو الآيات القرآنية، ذلك لأن ما تفيده الآيات يشكل دليلاً برهانياً صحيحاً،

---

١٩ – شرح العقائد النسفية، ص ٢٢٢، ط. القاهرة سنة ١٣٥٨هـ.

يشتق من الواقع صحته وقوته. فهو يرتب الفساد على التعدد، ولما كان الكون ليس كذلك، بل في غاية الإتقان والاحكام، فقد دل ذلك على أن له إلهاً واحداً[٢٠] .

ويعد «الماتريدي» من بين المتكلمين، من أولئك الذين شعروا بضعف الطريقة التقليدية في الاستدلال على الوحدانية، فعمد إلى الآيات مباشرة، وأخذ منها الدليل بشكل طبيعي، على الصورة التي أشرنا إليها، وهو الاستدلال بالنظام الكوني على وحدة المنظم، وهذه طريقة لا يختلف عليها العقلاء في كل عصر، وقد رأينا أمثلة لها في حياتنا المعاصرة، يقول «كلودم. هاثاواي» في بحث له بعنوان: المبدع الأعظم، ترجمه الدكتور الدمرداش سرحان في كتابه «الله يتجلى في عصر العلم» «وكلما كان النظام أكثر تعقيداً، بعد احتمال نشأته عن طريق المصادفة، ونحن في خضم هذا اللانهائي لا نستطيع إلا أن نسلم بوجود إله واحد[٢١] .

الصفات الإلهية وعلاقاتها بالذات :

هذه هي إحدى المشاكل الكبرى التي ثار حولها الجدل لدى المتكلمين، واختلفت فيها الأنظار، ما بين مثبت لها وناف، والمثبتون والنافون لم يوفقوا في تخريج القضية على وجه يرضي الدين والعقل. فالأشعرية والماتريدية قد أثبتوا الصفات على أنها معان وراء الذات تستقل في مفهومها عنها، بيد أنها لا تفارقها من حيث الواقع. غير أن الأشعرية أثبتوا فقط زيادة صفات المعاني وقدمها على الذات، وأما صفات الفعل فقد قالوا بحدوثها، متجاوزين عن مبدأ رسموه لأنفسهم من أن الله لا تقوم به الحوادث، والماتريدية لم يتابعوهم في هذه المسألة، وإنما أثبتوا قدم صفات الفعل، غير أنهم رجعوا بها إلى صفة واحدة هي صفة «التكوين» ويلاحظ على هؤلاء وأولئك التحكم الذي لا مبرر له، ويظهر أنهم لم ينفكوا عن تصورهم البشري لعلاقة الصفات بالذات وهم يبحثون هذه المسألة.

أما المعتزلة فقد قالوا بعدم زيادة الصفات على الذات، فوقعوا في اشكال خطير هو عدم التمايز بين مفهومي الذات والصفة.. كما أن اعترافهم بالصفات المعنوية يؤذن بضرورة وجود أصل الاشتقاق، فضموا إلى خروجهم على العقل خروجهم أيضاً على

---

٢٠ – وقد فطن ابن رشد إلى ضعف طريقتهم في انتزاع الدليل من الآية، فقرر نفس المعنى الذي أشرت إليه.

٢١ – ص ٩٠ ط ثالثة. القاهرة سنة ١٩٦٨.

اللغة. كما أن تصورهم أن القول بزيادة الصفات على الذات يؤدي إلى تعدد القدماء، يدل على أنهم لم يفهموا المسألة حق فهمها، لأن الصفات ليست أغياراً حقيقية يمكن أن تستقل عن الذات. بل من لوازمها. فإذا أضفنا إلى ما تقدم أن هناك فريقاً من المتكلمين من أصحاب الحشو قد أثبت الصفات على صورة تقترب كثيراً من التصور المادي، لتبين لنا إلى أي حد أخفق منهج المتكلمين في دراسة القضية دراسة صحيحة، ولم يسلم من هذا الاخفاق إلا أصحاب المنهج السلفي، الذين انطلقوا من تصور قرآني صحيح حين تعرضوا لهذه القضية، لأن الحق تبارك وتعالى، إذا كانت ذاته مخالفة في طبيعتها لذوات الحوادث، فصفاته كذلك، وما يتوهم غير هذا لا يكون صحيحاً.

تقويم هذا المنهج :

ومن العجب أن كل فريق يدعي أنه وحده حامل لواء التنزيه الإلهي، وأن ما سواه ليس كذلك، حتى تخطى الحوار منطق الهدوء والجدل العلمي إلى التنقيص والرمي بالجهل، بل ربما بالكفر أحياناً. وقد تولدت مشاكل جانبية من قضية الصفات وعلاقتها بالذات، لعل أظهرها قضية «الكلام» و«القرآن» وهل هو قديم أو حادث.

ومن منطق العقل والدين يمكن أن يقال : هل كان الواقع يحتم ظهور هذه المسائل على هذا الشكل الذي رأيناها عليه لدى المتكلمين، أو أنها من قبيل افتعال قضايا لا أساس لها من واقع الأمة الديني والفكري الصحيح؟. أعتقد أن الشق الثاني من الترديد هو ما أطمئن إليه، ويطمئن إليه كل عاقل. وحجتنا في ذلك أن القرآن الكريم قد حسم القضية، ووفر على العقل ذلك المجهود الذي بذله فيها دون جدوى. ولو قيل بأن المثيرات الخارجية كالفكر الوارد، الممثل في الفلسفة الإغريقية وشروحها، والأفلاطونية المحدثة وإلهاماتها، الذي أثر إلى حد كبير في الفكر الاعتزالي، أو التصور التشبيهي الذي أثارته بيئات غريبة على الإسلام. قد حرك لدى المتكلمين مناقشة مثل هذه القضية، فإن الرد على هذا القول سهل، هو: لقد كان على المسلمين أن يقفوا عند منطق القرآن ومنهاجه، وألا ينساقوا وراء هذه المثيرات بعد أن تبين أنها ذات طابع غريب عن روح الطابع الإسلامي.

ثم من ناحية أخرى : إلى متى سيظل المسلمون تحركهم قضية ردود الأفعال؟ أليسوا على حق حين يتمسكون بما لديهم وبخاصة في مجال الإلهيات أو الغيبات

عموماً، التي جاء الوحي وحسمها. ليترك للعقل مجاله الحقيقي. وهو عالم الشهادة؟ أعتقد أن هذا هو التصور الصحيح.

هذا هو تقويم هذا المنهاج في إطاره التاريخي، تبين لنا من خلال هذا العرض فشله في تناول قضايا العقيدة التي أشرنا إليها. ويظهر أن بعض المتكلمين البارزين قد شعروا بضعفه، فعضوا أصابع الندم، حين نظروا إلى واقعهم النفسي، فوجدوه غير مطمئن إلى نتائج استلزمها هذا المنهاج، وإلى واقعهم الاجتماعي فوجدوه زاخراً بتيارات فكرية تتنازع وحدة الأمة، وتكاد تصدع ترابطها فقالوا كلا ما نفسوا فيه عن مكنون صدورهم، من ذلك ما قاله فخر الدين الرازي، الجدلي الكبير :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سنَّ نادم

وقول الشهرستاني :

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقول أفضل الدين الخونجي وقد كان وحيد عصره في العلوم العقلية : لقد قضيت حياتي كلها وأنا أدرس افتقار الممكن إلى الواجب، والافتقار أمر سلبي، فأنا أموت وما علمت شيئاً. وكذلك ما قاله أحد مقدمي القوم: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق، طريقة القرآن الكريم، اقرأ في الإثبات: «إليه يصعد الكلم الطيب» «الرحمن على العرش استوى» واقرأ في النفي : «ليس كمثله شيء» «ولا يحيطون بشيء من علمه» «ولا يحيطون به علماً» ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي وما قاله «الجويني» : «لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم – يقصد منهاج أهل السنة والجماعة من السلف – وخضت في الذي نهوني عنه، والآن – وهو يعاني سكرات الموت – إن لم يتداركني الله برحمته فالويل لي. وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي»[٢٢] .

٢٢ – الشيخ محمد بهجة البيطار: حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٠١ ط. المكتب الإسلامي. بيروت ١٩٦١.

هل كان ندم هؤلاء بقادر على أن يغير من الوضع شيئاً؟ كلا، فقد كان نتيجة هذه التجربة القاسية التي مارسها هؤلاء. وإذا كان الأمر كذلك فهل يا ترى ننتظر نحن المعاصرين إلى أن نعاني التجربة من جديد حتى نعترف كما اعترفوا بفشل المناهج الكلامية؟ أو أن العبرة هي التي تكفينا، حتى نستأنف رسم منهاج صحيح، هذا ما أطمئن إليه.

المنهج المقترح والدواعي إليه :

ينقسم الناس بإزاء العقيدة الإسلامية قسمين كبيرين : قسم المؤمنين وهم الذين آمنوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا، وبالقرآن دستورا لهذه الأمة الخ قضايا الإيمان. وهؤلاء بدورهم، منهم عالى الإيمان، ومنهم متوسطه، ومنهم ضعيفه، ومنهم الغافل. ومواجهة هؤلاء إذا عن اشكال يتصل بأصول الاعتقاد، ينبغي أن تراعي مقتضى الحال والارتكاز على حقائق الدين كما صورها القرآن الكريم وبينتها السنة الصحيحة، مع استخدام العقل المنفعل بالوحي. هذا هو الذي ينبغي أن يكون منهاج من يتصدى لتفهيم هؤلاء ما عسى أن يكون لديهم من مشاكل عقدية. ولا بأس هنا من الاستعانة بمنجزات العلم في تأكيد قضية وجود الله ووحدانيته، على النحو الذي سنورده بعد، ولا بأس أيضاً من بيان فشل الأيدلوجيات والمذاهب المخالفة للإسلام، والتي قد ينبهر بها بعض ناقصي الثقافة، كما سنبينه بعد أيضاً، إذا كان ذلك في أوساط المثقفين وذوي الاطلاع الواسع والقدرة العقلية.

والقسم الثاني : أولئك الذين ظلوا في ميدان الكفر والإلحاد متشبثين بما هم عليه. وهؤلاء ينبغي أن يكون المنهاج الذي يتعامل معهم، يعمد أساساً إلى بطلان ما هم عليه من اعتقادات فاسدة، بمنطق العقل الصريح. وهذا يقتضي بالضرورة أن يكون المتصدي لهؤلاء خبيراً بالمذاهب والآراء والمعتقدات المخالفة للإيمان الصحيح، مدركاً للمآخذ التي يمكن أن تلاحظ عليها، ثم يأتي بعد ذلك دور سوق العقائد الإيمانية في شكل مقبول، حسب مستويات هؤلاء، فإن أذعنوا لمقتضى الأدلة التي تساق على صحة العقائد الدينية الإسلامية، فقد احترموا عقولهم، وانقذوا أنفسهم مما كانوا عليه، وإن ظلوا معاندين مكابرين مع وضوح الأدلة على فساد ما هم عليه وصحة ما يدعون إليه، فليس أمام الداعي إلا الإعراض عنهم، تحقيقاً لقول الحق تبارك وتعالى في شأن كل

معاند مكابر (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم)[٢٣] .

وهكذا يتضح لنا أن هذا المنهج يتغيا توضيح الحجة البرهانية حسب مستويات الطالبين وإقامتها على الجاحدين المكابرين، حتى لا تكون لهم بعد ذلك حجة.

وأما دواعي وأسباب ظهور هذا المنهج في حياتنا المعاصرة، فإن ذلك يرجع إلى سببين واضحين :

أولاً : عدم ملاءمة مناهج المتكلمين القدماء للواقع الذي كان يحياه عامة المسلمين، حيث تجاوزوا منهج القرآن الكريم، السهل الواضح الملائم لكل المستويات، إلى مناهج مصطنعة ظهر فيما سبق فشلها في كثير من القضايا، وهذا السبب يراعي جانب القسم الأول من القسمين المشار إليهما قبلا. قسم المؤمنين.

ثانياً : أن روح العصر يكسوها التقدم العلمي الهائل، واطراد اكتشافاته، الأمر الذي ظن معه بعض من الباحثين الغربيين وتبعهم في ذلك بعض ضعاف الإيمان من المسلمين. أن العلم قد حل كل شيء، وأن عصر الإيمان قد ولى. بينما رأينا - كما سنثبت بعد - أن اطراد العلم وتقدمه، إنما يخدم قضية الإيمان ويدعمها، إذا سار العلم في مساره الصحيح، لأن العلم يكشف عن الظواهر ويفسرها، ولا يستطيع تعليلها، لأن ذلك طور فوق إدراكه، طور الإيمان بقوة قاهرة قادرة، في ضوء الإيمان بها يمكن تعليل تلك الظواهر.

تطبيقات المنهاج المقترح في حياتنا المعاصرة :

معرفة أصول العقيدة من الكتاب والسنة أمر سهل، يستطيع أن يدركه كل مسلم متى فتح عقله وقلبه لهما، والأدلة التي ساقها القرآن على وضوح ما جاء به من عقائد ووضوح بطلان ما رفضه منها، لا تحتاج إلى مجهود كبير لإدراكها، ومن المعلوم أن القرآن الكريم قد جاء بمنهاج ذي وجهين: أحدهما لهدم العقائد الباطلة، حتى يطهر القلوب والعقول من إدرانها وشكوكها، ولتكون مستعدة للحق. وثانيهما لبناء العقيدة الصحيحة، وهو في هذين الوجهين يسوق أوضح الأدلة وأقربها إلى الغاية، لا تظهر

---

٢٣ - سورة النجم : آية ٢٩.

عليها الصنعة ولا التكلف، وكيف لا يكون كذلك، وهو منهاج رب العالمين، للناس أجمعين.

وفي الكتابات المعاصرة، ظهرت كتب كثيرة تناولت مسائل العقيدة، واختلفت منازع الكاتبين، حسب طريقتهم في المعالجة، وإن كانوا جميعاً لم يبعدوا كثيراً عن منهج القرآن الكريم، وسنختار – على سبيل المثال اتجاهين – يمثل كل منهما بعض علمائنا الأجلاء :

الاتجاه الأول : الاتجاه التقريري في الكتابة. ويمثل هذا الاتجاه في نظرنا؛ كتاب العقيدة الإسلامية. للشيخ عبد الرحمن الميداني، وكتاب العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق، إن الكتابين في مجموعهما يعالجان أصول العقيدة من منظور إسلامي واضح، ويستخدمان الأدلة العقلية لتعضيد الأدلة النقلية. ولم يلجأ إلى طريقة المتكلمين القدماء المعتاصة، ولم يثيرا غبار الجدل والمراء الذي ترهلت به كتب القدماء.

ونحسب أن مثل هذين الكتابين كافيان في حق المسترشدين من المسلمين على جميع مستوياتهم. إلا من ركب متن الغرور والشطط من أرباب القلوب الضعيفة، التي تلبس مسوح التكايس والتعالم.

الاتجاه الثاني : الاتجاه التقديري في الكتابة، وهو الذي ينزع أصحابه منزعاً عقلياً وجدانياً في كتاباتهم، إذا يضيفون إلى جانب ما عليه العقيدة من حق، أثرها في حياة الأفراد والمجتمعات، مبرزين دورها الواضح في الحياة كلها، بل نتائج ذلك في الحياة الآخرة. ملوحين إلى سوء الحياة التي أدارت ظهرها للإيمان. وولت وجوهها شطر الحياة المادية، ذات المتاع القليل والعرض الزائل، ويمثل هذا الاتجاه: الداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالي في كتابه: عقيدة المسلم، والداعية الإسلامي الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه: الإيمان والحياة، والدكتور حسن الترابي في كتابه: الإيمان وأثره في حياة الإنسان.

إن السمة الغالبة المشتركة بين هؤلاء هي توضيح أصول العقيدة كما ذكرها القرآن الكريم وبينتها السنة، ودعمتها الأدلة العقلية الصريحة، مضافاً إلى ذلك، تلك الشحنة الوجدانية الهائلة، التي تحرك وجدان المؤمن وشعوره حتى يتحول الإيمان إلى قوة دافعة مبدعة. تتجاوز الأمور المعرفية الباهتة التي يدركها كل من يقرأ كتب علم الكلام

في صورتها القديمة. إنها دراسات تحيي ما اندرس من كتابات أسلافنا العظام الذين كانوا يكتبون بكل ملكاتهم، ليوقظوا بما يكتبون مشاعر من يكتبون لهم، هنالك يظهر أثر الإيمان في استقرار الحياة كلها، فردية كانت أم اجتماعية. وحسب القارئ أن يقرأ موضوعاً في كتاب من كتب علم الكلام القديمة ويقرأ نفس الموضوع في كتاب من الكتب المشار إليها، ليدرك بنفسه وبتجربته الخاصة صحة ما نذهب إليه[٢٤] .

ونحسب أن هذه الكتابات وتلك، يمكن أن يتعدى أثرها واقع المسلمين إلى غيرهم من أصحاب الديانات والنحل الأخرى، متى قرأوها بعقول صريحة، ونفوس متحررة من أسر الإلف والعادة والتقاليد البالية والتعصب الأعمى.

في المجال الخارجي :

نقصد بالمجال الخارجي موقف المنكرين للأديان عموماً من الملحدين والزنادقة وأصحاب المذاهب المادية، وكذلك الذين يرون عدم أحقية الإسلام في أن يكون ديناً عاماً خاتماً للأديان، أو عدم صحته مطلقاً، من أصحاب الدينيين المحرفين من اليهود والنصارى.

والمنهج الذي ينبغي أن يتبع مع الأولين من الملحدين والماديين يقوم أساساً على بيان تهافت الموقف المادي من قضية الإيمان. وهو لاشك موقف متهافت، لأن أصحابه لا دليل معهم سوى مجرد الرفض، وإذا غلفوا رفضهم بأحقية العلم وبطلان الإيمان، فيعمد المنهج إلى بيان أن العلم لا يضاد الإيمان، بل يقويه ويدعمه، وتقوم هذه المسألة على أن العلم في حقيقته يكشف عن القوانين التي تحكم الظواهر، مادية كانت أو نفسية أو اجتماعية، وإذا كانت هذه القوانين حقائق موضوعية، لا ترجع إلى نفس الظواهر، بل هي توضيح لها، فإن معنى ذلك أنها موجودة لا لذاتها، بل لقوة أوجدتها خضوعاً لبدهية «السببية». ونحسب أن هذا المنهاج يتعامل مع جميع التصورات المادية بكل مدارسها ومنطلقاتها. وأما مواجهة أصحاب الأديان المحرفة المبدلة فإنما يكون ببيان طبيعة ما آلت إليه أديانهم بعد التحريف والتبديل، من حيث عدم موافقتها للعقل

---

٢٤ – ومن الرسائل التي جمعت بين الاتجاهين معاً : رسالة العقائد للمرحوم الشيخ حسن البنا.

والمنطق الصحيح والفطرة السليمة، والقرآن الكريم قد أرشدنا إلى كيفية التعامل مع هؤلاء، حين كفر من قال إن عزيرا ابن الله من اليهود، ومن قال أن المسيح ابن الله من النصارى، ثم أبطل دعوى اليهود في مواقف متعددة منها: عندما ادعوا أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات قال لهم: (قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون) وعندما ادعى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه قال لهم: (قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق) إلى آخر المواجهات التي ذكرها القرآن الكريم.

وسنشير بشيء من التفصيل إلى أعمال بعض الكاتبين الإسلاميين وغيرهم من المعاصرين التي يمكن أن تكون تطبيقاً للمنهج الذي نريده، من ذلك :

١ – ما كتبه العلامة المسلم وحيد الدين خان في كتابيه : الإسلام يتحدى، والدين في مواجهة العلم.

٢ – ما كتبه العلامة الدكتور محمد إقبال في كتابه: تجديد التفكير الديني في الإسلام.

٣ – ما يكتبه المفكر المسلم الشيخ أبو الحسن الندوي. ونخص من كتبه كتاب : الصراع بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية.

٤ – ما كتبه المرحوم الأستاذ الدكتور محمد البهي في كتابه : تهافت الفكر المادي التاريخي.

٥ – ما كتبه المفكر المسلم الدكتور عماد الدين خليل عن : تهافت العلمانية.

٦ – ما كتبه المفكر المسلم محمد قطب في كتبه : الإنسان بين المادية والإسلام، وشبهات حول الإسلام، ومذاهب فكرية معاصرة.

٧ – ما كتبه الدكتور طارق حجي عن : الشيوعية في الميزان.

٨ – ما كتبه المرحوم الشيخ نديم الجسر حول: قصة الإيمان بين الدين والفلسفة والعلم.

٩ – ما كتبه الأستاذ محمد فريد وجدي في موضوع : على أطلال المذهب المادي.

١٠ – مجموعة البحوث التي ترجمها الدكتور الدمرادش سرحان بعنوان : الله يتجلى في عصر العلم.

١١ – ما كتبه المرحوم العلامة أبو الأعلى المودودي في كتابه : نحن والحضارة الغربية، ورسالته الصغيرة : الإسلام والمدنية الحديثة.

وقد تكون بعض هذه الكتابات غير مباشرة في معالجة قضايا العقيدة، غير أنها في مجموعها، ترصد الفكر المنحرف، وتبين عوراته من منظور العقيدة الإسلامية الصحيحة، والعقل الحر المحايد، وفي نفس الوقت ذات رؤية ثاقبة لمنجزات العصر العلمية.

وسنختار عملين يبرزان أن العلم في تقدمه، إنما يكون سنداً للإيمان وتدعيماً له وليس انفجاراً معرفياً في وجهه كما يقول الماديون.

العمل الأول : الإسلام يتحدى :

يتبع المؤلف في هذا الكتاب المنهاج العلمي الصحيح، فيستعرض في الباب الأول قضية معارضي الدين، والأسس التي قامت عليها المعارضة، إذ يتصور هؤلاء الملحدون من العلماء أن الدين شيء لا حقيقة له، وهو مظهر للغريزة الإنسانية الباحثة عن حقائق الكون، والتي تحاول تفسيره. وأن الوقت قد حان لإعادة النظر في جميع ما خلفه الأجداد حول الكون والإله.

يذكر رأي «أوجست كومت» في المراحل الثلاث لتطور الفكر البشري : المرحلة اللاهوتية وهي التي فسرت الأحداث فيها باسم «الإله» والمرحلة الميتافيزيقية، وفيها فسر الإنسان الأحداث باسم عناصر خارجية لا يعلمها، ولكنه لا يذكر اسم الإله، والمرحلة الوضعية، وهي التي يفسر الإنسان فيها الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة، يمكن إدراكها بالمطالعة أو بالمشاهدة العلمية، وفي هذه المرحلة لا تذكر «الأرواح والآلهة والقوى المطلقة».

والحقيقة في نظر هؤلاء الماديين ليست إلا شيئاً يمكن فحصه وتجربته علمياً. ولما كان الدين قد قام على حقيقة لا سبيل إلى فحصها علمياً فهو باطل. وموقف علماء الأديان أشبه بموقف من يكتب شيكاً لا رصيد له في المصرف. وظهرت أفكار علمية قال بها أناس لهم شهرتهم تمحو دور الدين في مكتشافتهم. «فإسحق نيوتن» يدعي أنه لا وجود لإله يحكم النجوم. و«لابلاس» يدعي أن النظام الفلكي لا يحتاج في تفسيره إلى أي أسطورة لاهوتية. ويمكن حصر الأسس التي قامت عليها معارضة الدين في ثلاثة، هي :

الأساس الأول : في ميدان الدراسات البيولوجية. لقد انتهت بحوث «نيوتن» ومن

أتى بعده إلى القول بأن الكون في صيرورته مرتبط بقوانين ثابتة: هذه القوانين طبيعية داخلية. وهذه الفكرة تعترف بوجود إله حرك الكون الحركة الأولى، وانتهى دوره عند هذا الحد، وضرب «والتر» مثلاً لذلك، بالساعة يرتب صانعها آلاتها الدقيقة في هيئة خاصة، ويحركها، ثم تنقطع صلته بها، غير أن «هيوم» تخلص من فكرة وجود الإله هذا، فقرر: «لقد رأينا الساعات وهي تصنع في المصانع، ولكننا لم نر الكون وهو يصنع، فكيف نسلم بأن له صانعاً»(٢٥).

الأساس الثاني : في ميدان علم النفس. وفيه يفسرون الشعور الديني بأنه منبثق من اللاشعور الذي هو مخزن الأفكار التي تمر بالإنسان وينساها، والتي تخطر على القلوب في ظروف غير عادية. وقد توصل «فرويد» إلى أن اللاشعور قد يقبل أفكاراً في الطفولة، وتؤدي إلى أعمال غير عقلية، وهذا ما يحدث بالنسبة للعقائد الدينية، ففكرة الجحيم والجنة مثلاً، ترجع إلى صدى الأماني التي تنشأ لدى الإنسان في طفولته، ولكن لم تسنح الفرصة لتحقيقها، فتبقى دفينة في اللاشعور، ثم يفرض اللاشعور بدوره حياة أخرى تيسر له فيها ما كان يتمناه». وينتهي علم النفس إلى القول: «ليس الإله سوى انعكاس للشخصية الإنسانية على شاشة الكون وما عقيدة الدنيا والآخرة إلا صورة مثالية للأماني الإنسانية، وما الوحي والإلهام إلا اظهار غير عادي لأساطير الطفولة المكبوتة(٢٦).

الأساس الثالث : في ميدان التاريخ : ويفسر ظهور الدين تاريخياً بأن الإنسان اخترعه اختراعاً، عندما أحس بالقوى الطبيعية من حوله، كالزلازل والأعاصير، تخيفه وتزعجه فلم يجد له مرفأ يأوي إلى أمنه سوى اختراع فكرة الدين، وهي فكرة مفترضة، وليست واقعاً حقيقياً. وقد أضافت دائرة معارف العلوم الاجتماعية تفسيرات أخرى غير ما سبق لتفسير ظهور الدين. إذ تقرر: «إنه بجانب المؤثرات الأخرى التي ساعدت في خلق الدين فإن إسهام الأحوال السياسية والمدنية عظيم جداً في هذا المجال، أن الأسماء الإلهية وصفاتها خرجت من الأحوال التي كانت تسود على ظهر الأرض، فعقيدة كون الإله «الملك الأكبر» صورة أخرى للملكية الإنسانية، كذلك الملكية السماوية

---

٢٥ – الإسلام يتحدى : ص ٢٦، ٢٧، ط. تاسعة، سنة ١٩٨٥ نشر مؤسسة الرسالة. بيروت.

٢٦ – نفس المصدر : ص ٢٨.

صورة طبق الأصل للملكية الأرضية، وكان الملك الأرضي القاضي الأكبر، فأصبح الإله يحمل هذه الصفات، ولقب «بالقاضي الأكبر الأخير» الذي يجازي الإنسان على الخير والشر من أعماله إذن الدين في نظر هؤلاء قد جاء نتيجة: «تعامل خاص بين الإنسان وبيئته» كما صرح بذلك «جوليان هكسلي» وأن الإنسان قد خلق هذا الدين. وأتم خلقه، في حالة جهله وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية[٢٧] .

وفي هذا الميدان نعثر على من يفسر ظهور الدين في ضوء العوامل الاقتصادية، كما هو الحال لدى الشيوعية، وأنه خدعة النظام البرجوازي الاستعماري القديم، لأولئك المطحونين من الفقراء الذين سلبوا حقوقهم الاقتصادية، مصورين لهم أن قناعتهم فيما عند الله خير مما ضاع منهم، وفي هذا يقول لينين في الخطاب الذي ألقاه في المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعي في أكتوبر سنة ١٩٢٠: «إننا لا نؤمن بالإله، ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنسية والإقطاعيين والبرجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالاً. ومحافظة على مصالحهم، إننا ننكر بشدة جميع الأسس الأخلاقية التي صدرت عن طاقة وراء الطبيعة غير الإنسان، والتي لا تتفق مع أفكارنا الطبقية. ونؤكد أن كل هذا خداع ومكر، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال، لصالح الاستعمار والإقطاع[٢٨] .

نقض الأساس الأول : لعل أهم ما يمكن أن يوجه إلى هذا الأساس من «نقض» هو الفرق الهائل بين ما يمكن أن يجيب به العلم على ما يوجه إليه من أسئلة، وما يمكن أن يجيب به الدين، مما يتضح معه أن قصور العلم في جانب تعليل الظواهر، يعني أن هناك قوة خارجة عن نطاق العلم. هي التي يمكن أن تعلل بها هذه الظواهر، وهنا يظهر لنا أن الطبيعة حقيقة من حقائق الكون، وليست تفسيراً له كما يزعم الماديون، وما يأتي به العلم من كشوف، لا يتعلق إلا بالهيكل الظاهري للكون، إن العلم يفصل ما يحدث ولا يفسره تفسيراً علياً، إن مضمونه إجابة على السؤال: ما هذا؟ وليس لديه إجابة عن السؤال «لماذا؟». لقد صدق ما قاله العالم الأمريكي «سيسيل»: «إن الطبيعة لا تفسر شيئاً من الكون، وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير». ويقول أيضاً في هذا المقام :

---

٢٧ – نفس المصدر : ص ٢٩.

٢٨ – نفس المصدر : ص ٣٠.

«كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءاً من البدن تنسب من قبل إلى الإله. فأصبحت اليوم بالمشاهدة تفاعلاً كيماوياً، ولكن هل أبطلت هذه العملية وجود الإله؟ كلا، وإلا فأين القوة التي اخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلاً مفيداً؟.. إن الغذاء بعد دخوله في الجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة. ومن خلال نظام دقيق، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض، فقد صار حتماً علينا بعد هذه المشاهدات، أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة».

ويستشهد العلامة وحيد الدين خان بقول العالم الأمريكي المذكور الذي يقول فيه «لو أنك سألت طبيباً: ما السر وراء احمرار الدم؟ لأجاب: لأن في الدم خلايا حمراء، حجم كل خلية من البوصة. ولو سألته: لماذا تكون هذه الخلايا حمراء؟ لأجاب : لأن في هذه الخلايا مادة تسمى «الهميوجلوبين» وهي مادة تحدث لها الحمرة، حين تختلط بالأوكسجين في القلب. ولو سألته : من أين تأتي هذه الخلايا التي تحمل «الهميوجلوبين»؟ لأجاب : إنها تصنع في الكبد، ولو سألته : كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد بعضها ببعض ارتباطاً كلياً، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة؟ لأجاب: هذا ما نسميه بقانون الطبيعة، ولو سألته: ما المراد بقانون الطبيعة هذا؟ لأجاب : الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية. ولو سألته : لماذا تهدف هذه القوى دائماً إلى نتيجة معلومة. وكيف تنظم نشاطها، حتى تطير الطيور في الهواء، ويسبح السمك في الماء، ويعيش الإنسان في الحياة، بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة؟ لأجاب : لا تسألني عن هذا، فإن علمي لا يتكلم إلا عن ما يحدث، وليس له أن يجيب لماذا يحدث.

من هذا نستنتج :

١ - أن العلم له مجاله، وهو تحليل الظواهر، ولا يستطيع تعليلها، كما نطق بذلك أساطينه وإذا كانت الظواهر تحتاج بالضرورة إلى التعليل، فإن ما يتكفل بذلك هو الدين، وليس العلم.

٢ - أن القوانين الطبيعية التي تحكم عالم المادة. لا يمكن أن تكون ذاتية لها، لأنها لا تستطيع أن تخلق لنفسها شيئاً. وبما أنها موجودة وجوداً واقعياً، فإن هذا يدل على أن لها مقنناً هو «الله».

٣ – أن العلم في اطراده وتقدمه لا يكشف إلا عن حقائق جزئية من الكون. هي بعض عالم الشهادة. وعدم إدراك العلم لما وراء العالم المحس، ليس علماً بالعدم، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية. فدل ذلك على أن وراء أسوار العلم مناطق أوسع وأرحب، المتكفل ببيانها والحديث عنها هو الدين وحده.

وقد كان بوسعنا أن نتظاهر مع عالمنا «وحيد الدين» بعرض كثير من الأقوال التي قررها الاثبات من العلماء التجريبيين في هذا المقام، والتي تدل من غير شك على قصور العلم في تعليل الظواهر ولكن حسبنا هذه الاشارات، لأننا قد نتوسع أكثر قليلاً عند عرضنا للنموذج الثاني من الكتب التي اخترناها من بين الكتب التي تتبنى منهاجاً جديداً في مجال الدراسات العقدية.

نقض الأساس الثاني : يلاحظ على هذا الأساس ما يأتي :

١ – أن الاستدلال بأن الإله والآخرة قياس للشخصية الإنسانية وأمانيها على مستوى الكون لا وجه للربط بينه وبين إنكار الإله، ومن ثم إنكار الدين، وإذن فأي دليل مع هؤلاء المنكرين يثبت أن تلك الأماني ليست إلا صدى لخيالات وأوهام لا حقيقة لها.

٢ – إن القول بأن الذهن الإنساني يحتفظ بأفكار قد تظهر فيما بعد في صورة غير عادية قول صحيح في ذاته، ولكن هل يمكن أن ينهض كدليل على رفض الدين؟ كلا، أنه يعتبر استدلالاً غير عادي من واقع عادي، فهو أشبه بمن يشاهد مثالاً يصنع صنماً فيصرخ قائلاً: هذا هو الذي قام بعملية خلق الإنسان.

٣ – من معايب الفكر الحديث وبخاصة لدى أصحاب هذا الاتجاه، أنه يستنبط من حادث عادي، دليلاً غير عادي، وهذا منهاج معيب من الناحية المنطقية.

٤ – اللاشعور عند الإنسان – من الوجهة العلمية – فراغ في أصله، حيث لا يختزن فيه شيء قبل مولد الإنسان، وهو لا يختزن إلا المعلومات ووقائع شاهدها الإنسان في حياته ولو مرة واحدة. ومن المستحيل أن يختزن حقائق لم يعلمها من قبل. ومن المدهش حقاً أن الدين الذي جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يشتمل على حقائق أبدية، لا يمكن أن تخضع للحس، وبالتالي لا يمكن أن تكون مختزنة في اللاشعور. والسؤال الحاسم هنا: كيف يتأتى لهؤلاء المنكرين أن يرفضوا حقائق لا تخضع للشعور وبالضرورة لا تختزن فيه؟ إنه رفض لحقائق لا تخضع لتصورهم

وتفسيرهم لحقيقة الدين ومنبعه، وهو تصور خاص، لم يقم على أساس علمي صحيح، لأن تفسير نشأة الدين ليس كما يتصورون[٢٩] .

نقض الأساس الثالث : ويلاحظ على الذين يرفضون الدين بناء على هذا الأساس ما يأتي :

١ - أنهم لا يدرسون الدين دراسة حقيقية موضوعية، وبمنهج صحيح، ولهذا يبدو لهم كأنه شيء غريب.

٢ - أنهم يعممون أحكامهم، بحيث تشمل كل الممارسات والأفكار التي تنسب إلى الدين، أي دين، دون فحصها لمعرفة الصحيح منها من غيره، في أي مرحلة من مراحل التاريخ ثم يتأملون في ضوء هذا المحصول حقيقته وكأن الدين في نظرهم حقيقة اجتماعية وليس حقيقة خارجية فوق الإنسان والمجتمع.

٣ - لما كان الدين في نظرهم عملاً اجتماعياً، خضع في ظهوره لأسباب اقتصادية واجتماعية؛ فإن منهج البحث فيه عن حقائقه لا يتجاوز منهج البحث في العلوم الأخرى التي تنشأ في المجتمع، وهذا خطأ واضح في تصورهم للدين، وبالتالي في منهج البحث فيه. إن الدين حقيقة واحدة في ذاتها قد يقبلها المجتمع وقد يرفضها، وقد يقبلها قبولاً ناقصاً. ولكنه يبقى على كل حال علماً على حقيقة خارجة عن أن تكون أثراً لعوامل اجتماعية واقتصادية[٣٠] .

هذه باختصار الردود التي توجه بها العلامة المسلم وحيد الدين خان إلى معارضي الدين وهي في مجموعها تدل على أن هؤلاء قد رفضوا الدين في ضوء نظرتهم إلى حقائق ناقصة وجزئية لا يتصل بعضها بموضوع الدين مطلقاً، واعتقدوا أن الدراسة العلمية الحديثة قد أبطلته، على حين أننا لو نظرنا إلى الواقع جملة وتفصيلاً، فسوف نصل إلى نتيجة تختلف عن دعواهم كل الاختلاف. والدليل على ذلك :

١ - أن كثيراً من أصحاب العقول الممتازة، بعد أن تركت الدين، أخذت تهذي بكلمات لا حقائق وراءها، والسجل الذي أنتجه هؤلاء يشتمل على خرفات وآراء متناقضة،

---

٢٩ - نفس المصدر : ص ٣٥.

٣٠ - نفس المصدر : ص ٣٧، ٣٨.

وعلى أدلة أشبه بالسفسطة. من ذلك ما قاله «برتراندرسل»: «والإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف. إن بدأه ونشوءه، وأمانيه ومخاوفه، وحبه وعقائده كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظام الذرة، والقبرينهي حياة الإنسان، ولا تستطيع قوة احياءه، إن هذه المجهودات الطويلة والتضحيات والأفكار الجميلة، والبطولات العبقرية، كلها سوف تدفن إلى الأبد مع فناء النظام الشمسي، ولو لم تكن هذه الأفكار قطعية، فإنها أقرب ما تكون إلى الحقيقة، حتى إن أية فلسفة تحاول إنكارها ستلقى فناءها تلقائياً»[٣١] . ونقول : أليس في قول «برتراندرسل» تعصب مقيت يرجح التفسير المادي للحقائق على غيره من التفسيرات الأخرى المحتملة، كما يقول العالم الانجليزي «السير جيمس جينز» في كتابه الممتاز «عالم الأسرار»؟ ثم ما قيمة الحياة كلها في ضوء هذا التفسير المظلم، الذي يغلق كل أبواب الخير والأمل والتفاؤل أمام الإنسان، فيجعل مصيره على هذا الشكل المزري؟ وأي قيمة يمكن أن تستقر في حياتنا لنميز بها بين الطيب والخبيث؟ ثم أخيراً كيف نقبل هذا المصير الذي يسوي في نهايته بين الأسوياء والأشقياء، أو بين الصالحين والطالحين؟ إن التفسير المادي للحياة، إنما يذهب بقيمها الجمالية، ويحولها إلى ظلام دامس، ويجعل الإنسان فيها ترسا في آلة ميكانيكية، لا روح فيها، اللهم إلا أداء عملها النمطي، حتى تستوفي عمرها الافتراضي.

إن اختيار «رسل» ليكون نموذجاً لهؤلاء النفر الذين رفضوا الدين، اختيار له دلالته العميقة، لأن نبوغه العلمي، وبخاصة في مجال الرياضيات، لم يفده شيئاً، عندما تنكب الطريق الصحيح في النظر إلى الدين والحياة. وفي المقابل نطالع كثيراً من آراء الباحثين الممتازين، تعيد الأمل والاشراق إلى النفوس من جديد، لأنها اهتدت إلى النظرة الصحيحة للدين، وانتهجت منهاجاً حقيقياً في بحثها العلمي، وهو ما سنتحدث عنه الآن في الكتاب الثاني.

العمل الثاني : الله يتجلى في عصر العلم

هذا الكتاب ترجمة لمجموعة من البحوث العلمية قام بها أصحابها، في ميادين مختلفة من العلم بلغت ثلاثين بحثاً، لعلماء أجلاء، لهم أقدام راسخة في مجال

---

٣١ – نفس المصدر : ص ٤١.

اختصاصاتهم وبالضرورة لابد أن تكون النتائج التي توصلوا إليها حاسمة في موضوعنا، وكأن هذه النتائج في مجموعها تقرر أن الدين حق، وأن الإيمان بوجود قوة عظمى. هو حقيقة علمية عقلية بجانب كونها حقيقة وجدانية شعورية. وهي في نفس الوقت رد مباشر على أولئك الذين يزعمون أن الدين لا حقيقة له، حين نظروا إلى القضية بأدوات قاصرة وأفهام كليلة.

ولو ذهبنا نستعرض النتائج التي انتهى إليها هؤلاء لطال بنا الحديث، ولكننا سنجتزيء نتائج بعض البحوث، لنستخلص منها ما يمكن أن يفيده التقدم العلمي في ميدان الدين والإيمان. وليتبين لكل ذي عقل أن الرافضين للدين بحجة التقدم العلمي، قد أخطأوا علمياً بجانب ارتكاسهم الديني.

من البحوث التي اخترناها: نشأة العالم، هل هو مصادفة أو قصد؟ لعالم الطبيعة البيولوجية «فرانك ألن» يقول فيه: «كثيراً ما يقال إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فيكف نفسر وجوده ونشأته» ثم يستعرض احتمالات نشأة الكون على الوجه الآتي :

١ - أن يكون هذا الكون وهماً وخيالاً، وقد قال بذلك «سير جيمس جينز».

٢ - النشأة التلقائية الذاتية. (المصادفة) من العدم المحض، وقد قال بذلك بعض الباحثين.

٣ - الأزلية المطلقة، يعني أن يكون العالم من مادة قديمة تحركت بذاتها فأصبحت كوناً، وهو مذهب الماديين عموماً.

٤ - أن يكون له خالق مدبر حكيم قادر. وهو قول المؤمنين من الباحثين.

والاحتمالان الأول والثاني ساقطان، فأما الأول، فلأنه يتعارض مع الوجود الحقيقي للكون، وهذا التفسير يرجع إلى إحساس من يقول به، لا إلى الواقع في ذاته. وأما الثاني فباطل كذلك، لأنه يتعارض مع مبدأ «السببية» وهو مبدأ بديهي.

وأما الاحتمال الثالث، فإنه باطل كذلك؛ لأن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن عناصر هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق. أما الشمس

المستعرة والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذن حدث من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قوي ليس لقدرته حدود، ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه[٣٢].

ومن تلك البحوث أيضاً، آخر بعنوان: «الأدلة الطبيعية على وجود الله» كتبه «بول كلارنس ايرسولد» أستاذ في الطبيعة الحيوية. يستهل بحثه بهذا الاعتراف : «وقد لمس الناس عامة - سواء بطريقة عقلية فلسفية أو روحانية - أن هنالك قوة فكرية هائلة، ونظاماً معجزاً في هذا الكون، يفوق ما يمكن تفسيره على أساس المصادفة أو الحوادث العشوائية، التي تظهر أحياناً بين الأشياء غير الحية، التي تتحرك أو تسير على غير هدى».

ونقض فكرة المصادفة أو العشوائية كتفسير لنشأة الكون، يعني ضرورة التعليل المقبول، الذي يفرض على العقل، وإذا كان جمهور العلماء التجريبيين يدركون أن وسائلهم، وإن كانت تستطيع أن تبين لنا بشيء من الدقة والتفصيل كيف تحدث الأشياء، فإنها لاتزال عاجزة عن أن تبين لنا: لماذا تحدث؟ إن العلم والعقل الإنساني وحدهما لن يستطيعا أن يفسرا لنا لماذا وجدت الذرات والنجوم والكواكب والحياة والإنسان.. وعلى الرغم من أن العلوم تستطيع أن تبين لنا نظريات عن السديم ومولد المجرات والنجوم والذرات، وغيرها من العوالم الأخرى، فإنها لا تستطيع أن تبين لنا مصدر المادة والطاقة التي استخدمت في بناء هذا الكون، أو لماذا اتخذ الكون صورته الحالية ونظامه الحالي. إذن التفكير المستقيم والاستدلال السليم يفرضان على عقولنا قضية وجود الله[٣٣] وينهي الباحث حديثه بقوله: «وبرغم أننا نعجز عن إدراكه إدراكاً مادياً أو وصفه وصفاً مادياً، فهناك ما لا يحصى من الأدلة المادية على وجوده تعالى، وتدل أياديه في خلقه على أنه العليم الذي لا نهاية لعلمه، الحكيم الذي لا حدود لحكمته، القوي إلى أقصى حدود القوة»[٣٤].

---

٣٢ - الله يتجلى في عصر العلم : ص ٦، ط ثالثة. القاهرة سنة ١٩٦٨.

٣٣ - نفس المصدر السابق : ص ٣٥، ٣٦.

٣٤ - نفس المصدر السابق : ص ٣٦.

يظهر مما سبق أن هذا المفكر لم يستقص كثيراً من الأدلة، كما رأينا لدى الكثيرين من أمثاله، إلا أنه قال فصل الخطاب في قضية الرد على المعارضين، حين قرر أن «الله» سبحانه وتعالى، كائن روحي، وهو فوق التصور الإنساني العاجز، فإذا كان الإنسان منا يعجز عن إدراك كثير من المعاني الروحية، وأقربها إلى ذاته «روحه هو» اللهم إلا في حدود خبرته، فكيف يتصور أن «الله» «الروح المطلق» يمكن أن يخضع للحس والتجربة حتى يعترف به هؤلاء المعارضون؟

وقد لفت نظري وأنا أطالع الكتاب الذي معنا، بحث في غاية الأهمية والجرأة، اعتمد صاحبه على بيان الطريقة العلمية التي ينبغي أن تتبع في البحث، ثم كشف عن تورط بعض الباحثين في ميدان العلوم التجريبية حين يتجاوزون هذه الطريقة، خضوعاً لضغوط سياسية أو دينية غير صحيحة، أو أن يكونوا واقعين تحت تأثير الإلف والعادة والتعصب لما هم عليه من معارضة للدين، لا تقوم على أساس صحيح. وعنوان البحث: استخدام الأسلوب العلمي. ومؤلفه «وولتر أوسكارلندبرج» عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية.

والطريقة العلمية الصحيحة التي تصل بنا إلى الإيمان هي :

١ – ملاحظة العالم لبعض الظواهر التي يقع عليها اختياره.

٢ – تسجيل هذه الظواهر.

٣ – الربط بين ملاحظاته والنتائج التي توصل إليها من سبقه في مجال بحثه، حتى يمكنه الحصول على نتائج أو فروض جديدة.

٤ – أن يستنبط من ملاحظاته والنتائج السابقة ما يمكن أن يكون تفسيراً للظاهرة، ودور التنبؤ هنا دور أساسي، والاستنباط هو الذي يساعد على ذلك.

إن الطريقة العلمية هذه تقوم على أساس انتظام الظواهر الطبيعية، والقدرة على التنبؤ بها في ظل هذا الانتظام. وانتظام الظواهر والقدرة على التنبؤ، هما الأساسان اللذان تقوم عليهما الطريقة العلمية، وهما في الوقت ذاته أساس الإيمان بوجود الله، إذ كيف يتسنى أن يكون هنالك كل هذا الانتظام، وأن يتسنى لنا أن نتنبأ بهذه الظواهر ما لم يكن هنالك مدبر مبدع، وحافظ لهذا النظام العجيب[٣٥] إن هذا الطريقة في

---

٣٥ – نفس المصدر : ص ٣٢، ٣٣.

الاستدلال تذكرنا بما انتهى إليه بعض مفكري الإسلام، حين استدلوا على وجود الله بوجود هذا النظام الكوني، والعناية الفائقة بهذا الكون[٣٦].

هذه بعض شذرات، أخذتها من بعض البحوث التي أخرجها مجموعة من العلماء الأثبات في مجالات العلوم التجريبية. والتي يمكن أن نستخلص منها :

أولاً : أن العلوم التجريبية، بل والإنسانية كذلك، تكشف كل يوم عن الجديد من القوانين والحقائق التي تؤكد وجود الحقيقة الكبرى «الله» وأن دعاوي معارضي الدين عارية عن الصحة، لأنها عارية عن الدليل.

ثانياً : أن فشل معارضي الدين في إثبات صحة موقفهم، استغل من قبل بعض المنظمات السياسية والمؤسسات الدينية لصالح طوائف بعينها، يهمها أن يظل الدين الصحيح بعيداً عن التأثير فيمن يفرضون سلطانهم عليهم، وأن تبقى فوضى الالحاد هي عقيدة هؤلاء.

ثالثاً : إن الخضوع للهوى والبعد عن المنهاج العلمي، والتعصب المقيت للأعراف والتقاليد الشاذة، كان من العوامل التي أسس عليها معارضو الدين مواقفهم.

رابعاً : أن موجة الالحاد التي رأيناها في الغرب في القرن الماضي، والتي كانت نتيجة مباشرة للتقدم العلمي في المجالات المختلفة، لا يمكن أن تكون تعبيراً عن الروح العامة التي يحياها الإنسان الغربي، إنها يمكن أن توصف بالالحاد الفكري، الذي لا يتجاوز العقل إلى الروح، وقد يكون هذا مظهراً من مظاهر الغرور الكاذب الذي ينشأ لدى الإنسان من آثار توجيهه العقلي وفي غيبة تلك الروح، حتى إذا ما ظهرت عوامل إحياء هذه الروح من جديد، تبين لمثل هؤلاء أن ما كانوا عليه من قبل، لم يكن إلا سرايا يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. ولعل خير دليل على ما أقول ما صرح به المفكر المسلم الدكتور رشدي فكار في جلسة خاصة، من أنه زار الفيلسوف الوجودي، المعروف «جان بول سارتر» وهو على فراش الموت، فقرر أمامه أنه لو استقبل من أمره ما استدبر، لا نتهج نهجاً آخر فيما يتعلق بعلاقته بالدين. يقوم على الإيمان، وشفع إقراره هذا بإعطاء مفكرنا رسالة صغيرة، مكتوبة باللغة الفرنسية عنوانها :

---

٣٦ – ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٥٠، تحقيق د. محمود قاسم، ط. القاهرة سنة ١٩٦٤.

«الارتداد» وتعني بلغة الإسلام «التوبة». وليس لنا أن نتعجب من هذا الموقف فأمثلته كثيرة ومتعددة، لعل أظهرها، ما عرف عن نهاية «ماركس» وما سمعناه عن قصة إسلام المفكر الفرنسي المسلم «جارودي». إن هذا الذي حدث ويحدث يؤكد ما قاله الحق تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء...»[٣٧].

تقويم هذه التجربة المنهجية في ضوء حقائق الإسلام :

نسوق هنا الحقائق الآتية :

١ - الإسلام هو التعبير النهائي والأخير لاتصال السماء بالأرض، ودليل هذه الحقيقة هو طبيعة هذا الدين، وما جاء به من أحكام : عقدية وعملية وأخلاقية، هي في تحليلها النهائي، منجاة للإنسان من أي انحراف أو ضلال، كما أنها في مجموعها العام، لصالحه هو.

٢ - الإسلام يجعل من أساسيات الإيمان به «العقل» كما يجعله أساس التكليف بأحكامه التفصيلية. لكل من آمن به، قبل أن يبلغ درجة النضوج العقلي.

٣ - الإسلام دين عالمي في نطاقي الزمان والمكان، وهذه العالمية تقتضي أن يكون له حكم على كل الظواهر الفكرية والسلوكية، لدى البشر جميعاً، بما يتلاءم مع استعداداتهم وقدراتهم، وإلا ظل محصوراً في نطاق يخالف طبيعته العامة.

٤ - جعل الإسلام الفيصل بين الحق والباطل هو البرهان الجلي الواضح، أما ما دون ذلك مما يظنه الناس دليلاً، وهو ليس كذلك فهو ساقط من حسابه، وأن أصحابه هذه المواقف لا يقولون إلا بالظن وما تهوي الأنفس.

٥ - أودع الله آياته الدالة على صدق وجوده وعظمته في كتابه المسطور، وكونه المنثور، وحض العقل على اكتناه أسرار كتابه وكونه، فضلاً عن آفاق النفس الحافلة بكل دلائل العظمة لله رب العالمين.

٦ - القوانين التي تحكم عالم المادة وعالم الأحياء، سنن آلهية. في الكشف عنها تأكيد

---

٣٧ - سورة القصص : آية ٥٦.

وتدعيم للإيمان، متى انتهج الباحثون، المنهاج العلمي الصحيح. وفي هذا ما يؤكد أن التقدم العلمي، ليس خطراً على الدين، كما يزعم الملحدون.

٧ – أن الروح الكونية العامة روح مؤمنة، سواء منها ما كان عاقلاً كالإنسان ومن في حكمه أو غير عاقل كبقية الكائنات الأخرى، والتسخير لما سخره الله، مظهر من مظاهر هذا الإيمان لهذه الموجودات، ومن البديهي أن تأكيد إيمان الروح الإنسانية يكون أقول وأولى.

٨ – أن الاتجاهات الالحادية تحمل معها أدلة تهافتها، وأن المنهج العلمي يكشف عن ذلك دون معاناة. وهذه الاتجاهات بدعة فكرية ضحلة، يروج لها الضعفاء في كل زمان، إما لفشل في استيعاب الروح الإيمانية، وإما لتسخير دعاويهم لخدمة مؤسسات وسلطات معينة.

في ضوء هذه الحقائق نقول: إن المنهج الذي ينبغي أن يتبع في دراسة علم العقيدة في حياتنا المعاصرة، من واجبه أن يعمل في ضوء الحقائق السابقة، وهذا يقتضي من العاملين في حقل هذه الدراسات ما يأتي :

١ – تجاوز الطرق الجدلية التي كان يستخدمها القدماء، وتشكيل أدلتهم في إطار واقعي عقلي وجداني، يرتكز أساساً على القرآن الكريم، واستيعاب ما فيه من روح عامة تغذي عملية الاستدلال وتقويها، بما يتفق مع ملكات الإنسان ومواهبه.

٢ – الوقوف على أحدث منجزات العلوم التجريبية والإنسانية، ومعرفة الحق من الباطل فيها وتنبيه العاملين في إطارها إلى ذلك، مع بيان أن الخطأ الوارد في هذه العلوم، إنمايرجع إما إلى الخطأ في منهج البحث، أو إلى توجيه الحقائق توجيهاً يحولها إلى أباطيل.

٣ – اتخاذ صالح الإنسان من حيث هو، المقياس الحقيقي للحكم على الآراء والمعتقدات، في حياته الراهنة، وفي حياته الممتدة.

وأحسب أن مجموعة الدراسات التي أشرنا إليها في أول هذا المبحث، والتي قدمها أصحابها من منظور متطور، والتي اخترنا لتمثيلها كتابي: «الإسلام يتحدى» و«الله يتجلى في عصر العلم» إنما تغذي هذا الاتجاه وتقويه. ونحن في واقعنا في حاجة إلى

المزيد من مثل هذه الدراسات بل في حاجة إلى دراسة أكثر استيعاباً، لرصد ما عسى أن يكون من انحراف عقدي وفكري في كل النتاج الفكري المعاصر.

ولعل من أهم ما يمكن أن يقال في هذا المقام، أن مؤسساتنا التربوية بكل أنواعها - وبخاصة ما كان منوطاً به منها القيام على الدراسات العقدية كالأزهر الشريف وما في حكمه من المؤسسات الأخرى - أقول : هذه المؤسسات لاتزال حتى يوم الناس هذا أسيرة المنهاج القديم في دراسة العقيدة، تهيباً منها وخشية أن ينال التجديد تلك القوالب الجامدة، غافلين عن حقيقة هامة، هي: أن التجديد الذي نعنيه، ليس تجديداً في القضايا والمسائل، بل في المنهج والأسلوب، وأختم كلامي بأن أسوق لكل ذي بصر، ما ذكرته في التمهيد لهذا البحث، وهو قوله تعالى : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن...»[٣٨] ثم أقرر : أن هذه الآية تعتبر إطاراً عاماً، ينبغي أن تراعى فيه الظروف ومقتضيات الأحوال، فإذا أعرضنا عن ذلك، بالتمسك بأسلوب لا يتساوق مع مطالب العصر، كنا متجاوزين لروح المنهج الذي أومأت إليه هذه الآية. وكنا متجاوزين لواقع له مطالبه، إلى ماض لا يفيد منهاجه في واقعنا شيئاً.

والله أعلم.

---

٣٨ - سورة النحل : آية ١٢٥.